تاريخ شعراء العربية

ابن الرومي

العصر العباسي الثاني



اعداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص.ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومولده ونشأته

ولد علي بن العباس بن جُرَيْج في مدينة بغداد سنة ٢٢١هـ من أب يوناني ، وأم فارسيّة ، وتلقَّف العلوم الدينية والأدبيَّة والفلسفيّة في العاصمة العبّاسية ، وأفاد من كتاتيبها وحَلقات المساجد العلمية ، ومن مكتبة دار الحِكْمة العريقة .

ويسيل الشعر على لسانه ، فيتوجّه به إلى الوجَهاء ليتكسّب به ، ولكنّه لم يُصِبْ من ذلك ما أصابه منافِسُه البحتريّ ، وكان بينهما عداوة وبغضاء .

ملامحه الجسمية

كان لابن الرومي رأس صغير مستدير ، وجسم نحيل ، ولِحية كثَة ، وكان أَصْلَعَ ، وقد داهمه الشيب مبكّراً ، وتكاثرتْ عليه العلل والأسقام ، فأفسدتْ أعصابه ، فكانت مشيته مختلجة مضطربة ، وكان صلعه ما يزال يتوسّع حتى شمل كل رأسه فغدا أقرع .

سماته النفسية

كانت ملامح ابن الرومي النفسيّة مضطربة أيضاً اضطراباً شديداً ، فهو سريع التقلّب ، فقد يمدح في يومه أمراً ثم يذمه في غده ، فهو قد مدح ابن عمار ، وكان له صديقاً ، ثمّ انقلب عليه وهجاه ، وعلى عكس ذلك هجا الأخفشَ النحوي (علي بن سليمان) وأفحش ، ثمّ عاد ومدحه ، ووصفه بأنّه بحر من بحور العلم .

وعلى هذه الشاكلة يذمّ البخل ، ثم يعود فيمدحه ، ويقول :

لا تَلُمِ المَرْءَ على بُخْلِهِ ولُمْهُ يا صاحِ على بَذْلِهِ
لا عجب بالبخل من ذي حجىً يكرم ما يُكْرَمُ من أَجلِهِ

وكما مدح البخلَ مدح أيضاً الحقد ، وذمَّ الوَرْد ، وما من شك أنّ اضطرابه العصبي أثّر في علاقته مع الناسِ ، فلم تكن موفّقة ، وكان يحسّ وكأن الناس يحسدونه :

أَبَعْدَما اقتطعوا الأموال واتَّخذُوا حدائقاً وكروماً ذات تعريشِ
يحاسدوني وبيتي بيتُ مَسْكَنَةٍ قد عشّشَ الفقرُ فيه أيَّ تعشيشِ

وكان ابن الرومي يتطيَّر تطيراً شديداً[1] ، وكانتْ فيه سوداويّة ، وعرفَ الناسُ ذلك منه ، فكان بعضُهم يقرع عليه الباب صباحاً فإذا سأله من الطّارق ذكر اسماً غير اسمه ، من تلك الأسماء التي ينقبض لها ابن الرومي ، فإذا سمع ذلك ابنُ الرومي صدَف[2] عن الخروج كلَّ يومِه . وهو حين يتشاءم إنّما يستجيب لاضطراب نفسه الذي ينعكس في مسير عقله ، فإذا به يحاكم الأشياء - أحياناً - ويربط بينها ربطاً غير صحيح ولا وثيق ، وآيةُ ذلك أنّه كان يتطيّر من اسم " جعفر " وهو في اللغة الجَدْول ، والنّاقة الغزيرة اللّبن ، لكنْ لأمرٍ ما كان ابن الرومي يجعله من الجوع والفرار . وقد سَخِرَ أبو العلاء منه ، لذهابه هذا المَذْهب ، وقال : لو هُدِيَ ابن الرومي لصَرَف اسمَ جعفر إلى النهر الجرّار .

---

(١) يتطيّر : يتشاءم .

(٢) صدَف : أعرض .

وكان ابن الرُّومي أيضاً نَهِماً شَرِهاً يحبّ الطعام حبّاً جمّاً ، مُفْرِطاً ، وهو حبّ هجا من أجله شهرَ رمضانَ المبارك ، وجعله يتغنّى بأنواع المآكل ، فشبّه السمك الأبيض بسبائك الفِضّة ، ووصف الدجاجة التي ظلّ يقشر جلدها الأحمر عن لحمها الأبيض ، وكأنّه يقشرِ تبْراً عن لجين ، وجعل العنبَ الرازقي مثل مخازن البلّور لصفائه وشفافيته ، وإفراطُ ابن الرومي في هذا المجال - على هذا النحو الشاذّ - ورّطه في شرب الخمرة، ليسلّي همومَه ، ولم يسلّها لشِقاوته بما يصنعه المسلم المهتدي الذي يذكر الله تعالى بأيّ من تلك الصِّيَغِ الكثيرة المأثورة ، التي تنجلي بها الأحزان ، وتُدْفع الكروب .

موته

مازال ابن الرّومي يقبل على الطعام مع نحوْله إقبالاً منقطع النّظير حتى عرف الوزير القاسم بن عبيد الله وزير الخليفة المعتضد من أين يُؤْتَى ؟ وكان يكره ابنَ الرومي ويخافُ سَلاطة لسانه وحِدَة هجائه ، فأغرى به مَنْ دسّ له السُّمّ في لون من الطعام كان يحبّه ابن الرومي ، فصُرِع بذلك الطعام المسموم ، وكان مقتله سنة ٢٨٣ أو ٢٨٤هـ .

خصائصه الفنّيّة

ابن الرومي من الشعراء المقدَّمين في الهجاء ، يغوص وراء المعاني ، ويكثر التفريع فيها ، والتوليد منها ، حتى يأتي بالنادر الطَّريف المُعْجب ، وهو حسن الوصف ، بارع التصوير ، ذو قدرة فائقة على صوغ العبارات الطليَّة المنسجمة

وترقيشها بحُلى البيان أو البديع . وديوانه طويلٌ جدّاً ، فلا تشمل هذه الأحكام كلّ ذلك الديوان الذي نشر قسماً منه محمد شريف سليم ، وانتخب مجموعة منه كامل كيلاني ، وأخرجه بعد ذلك الدكتور حسين نصّار عن مخطوطات وجدها في دار الكتب المصريّة .

ومن يتأمّل في شعر ابن الرومي يجدْه أحياناً جميل الأسلوب والمعنى جميعاً ، كنحْو قوله :

ما أَنْسَ لا أنسَ خبّازاً مررتُ بهِ يدحو الرُّقاقةَ مثْلَ اللمح بالبَصَرِ[1]
ما بينَ رؤيتِها في كفّه كُرَةً وبين رؤيتها قوراءَ كالقَمرِ[2]
إلّا بمقدارِ ما تنداحُ دائرةٌ في لُجّةِ الماء يُلْقى فيه بالحَجرِ[3]

فهاهنا سخّر لهذه الصورة الطريفة ألفاظاً مُخيّرة ، جميلة ، لكنّه أحياناً لا يبالي إذا رَضِيَ معنى أنْ يسوقه بأسلوب مُغْرب فإذا هو يستعمل " اللِّصابَ " لشعاب الوادي ، و " السِّخاب " للقِلادة ، و " المرثّ " للحليم الصبور في الخصام ، و "القَفْد " للصفع على القفا بباطن الكفّ .

وهو لم يسرف في تحلية شعريه بالمحسّنات البديعية ، لكنّه يستعملها أحياناً ، انظرْ إلى هذه المجاورة في قوله :

مُشْتَرَكُ الحَظِّ لا مُحَصَّلُهُ محصِّلُ المَجْدِ غير مُشْتَرَكه
منتهكُ المال لا ممنَّعُهُ ممنَّع العِرْضِ غير مُنْتَهكِه[4]

---

(١) الرقاقة : الرغيف . (٢) قوراء : مبسوطة مرقّقة .

(٣) تنداح : تتوسّع . لجّة الماء : عمقه .

(٤) الممدوح مشترِك الحظ مع الناس ، لكنه انفرد وحده بتحصيل المجد فلم يَشْرَكه فيه أحد ، كما أنّه ينتهك أمواله بالعطايا ، على حين أنّ عرضه سليم مصون غير منتهك .

وقد يعمد إلى التَّرْصيع ، أو الجناس ، أو الطباق ، يقول مطابقاً بين المدح والهجاء ، والمنع والعطاء :

إذا ما المدح سار بلا ثوابٍ — من الممدوح فهو له هجاءُ
لأنَّ الناسَ لا يخفى عليهمْ — أمنعٌ كان منه أمْ عَطاءُ

وابن الرومي قد سبق أبا العلاء في التزام ما لا يلزم ، كقوله في ثقيل :

يا أبا القاسم الذي ليس يُدْرَى — أرصاصٌ كيانُه أم حديدُ
أنتَ عندي كماء بئرك في الصَّيف — ثقيلٌ يعلوه بَرْدٌ شديد

فالتزم هنا ثلاثة حروف . وقال في داره التي اغتصبها منه رجل من التجار وأجبره أن يبيعها ، فشكاه الشاعر إلى سليمان بن طاهر :

ولي وطنٌ آليتُ ألّا أبيعَه — وألا أرى غيري له الدَّهْرَ مالِكا
عَمرْت به شَرْخَ الشَّباب منعَّماً — بصُحْبَة قومٍ أصبحوا في ظلالكا
وحبّب أوطانَ الرجال إليهمُ — مآربُ قضَّاها الشَّبابُ هنالكا
إذا ذَكَروا أوطانَهمْ ذكَّرتْهُمُ — عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا
فقد أَلِفَتْه النَّفْسُ حتى كأنَّه — لها جسدٌ إنْ بانَ غُودرَ هالكا

من روّاد المدرسة الإبداعية (الرومانسية)

كان ابن الرومي مريض الجسم ، ملتهب الأعصاب ، حادَّ الزاج ، سريع الانفعال ، قويّ التأثّر ، ضيّق الصَّدْر ، كثير الطِّيَرة ، قلق النَّفْس .

ولـو وقفنـا على خصـائص المذهـب الفنّـي الـذي رادَه[1] ابـنُ الرومــي لوجدناه شديدَ التشابه مع مذهب الإبداعية (الرومانسية) الذي شاع في أوربـا في النّصف الأوّل من القـرن التاسـع عشـر وعرفتْه بيئـة شـعراء المهجـر وبعـض الأوساط في الشرق الأوسط مع بدايات هذا القرن العشرين .

١–وأولى خصـائص مذهـب ابـن الرومــي اضطـرامُ عواطفــه ، وعتــوّ انفعالاته ، والتهابُ أحاسيسه وأعصابه ، وهي خصيصة لم يحاول أنْ يخفّفَ مـن عَنتِها ، ولا أن يشغَلها باهتمامات تقيـه سـيئاتها ، بـل اندفـع بهـا يمـارس الملاذَّ بإسراف ، واندفـع بهـا أيضـاً إلى شـيء آخـر ، وهـو عـدم احتمـال الآخريـن ، وإصلاؤهـم بنار هجائه ، حتى ضُرِبَ المثلُ به في هذا الشَّأن ، فقيل " أهجى مـن ابن الرّومي " . يقول في مغنّيةٍ اسمُها شَنْطَفُ :

إذا ما شَنْطَفٌ نكهـتْ أمـاتتْ ... فمن ندمائها قَتْلـى وصرعَـى[2]
يُلاقي الأَنْفُ مِنْ فمِها عذابـاً ... وتَرْعى العَيْنُ منها شرَّ مَرْعَـى
وإنّ سكوتَها عندي لبُشْرى ... وإنّ غِناءَهــا عنــدي لمَنْعَــى
فَقرِّطْهـا بعَقْرَبِ شَــهْرَ زُوْرٍ ... إذا غنَّــتْ وطوِّقْهــا بــأفعى[3]
فإنْ جاءتْ فلا أهـلاً وسـهلاً ... وإنْ ذهبتْ فـلا حفْظـاً ورُجْعَـى

٢–والخصيصةُ الثانية أنّه كان يحبُّ الطّلاقةَ وألّا يتقيّد بشيء ، وعلّ هـذا سرُّ حبِّه الطَّبيعةَ ؛ يقول في وصف شمس الأصيل :

---

(١) راده : قاده .

(٢) نكهت : تنفّستْ .

(٣) قرِّطْها : شَنّفْ أذنها . شهر زور : مدينة بإيران .

وقدرنَّقت شمسُ الأصيلِ ونفَّضتْ على الأفُقِ الغربي ورَسْاً مُزَعزَعا[1]
وودَّعت الدُّنْيا لتقضيَ نحبَها وشوَّلَ باقي عمرها فتشعشعا[2]
ولاحظت النُّوّارَ وهي مريضةٌ وقد وضعتْ خداً إلى الأرض أضرَعا[3]
كما لاحظَتْ عوّادَه عينُ مُدْنَفٍ توجَّعَ من أوصابه ما توجَّعا[4]

وكان دعاة الرومانسيّة قد عدّوا الفرار إلى الطبيعة من خصائص مذهبهم . وهو ادّعاء ، لأنّ كل الناس يحبّون الطبيعة الغنّاء .

٣-والخصيصة الثالثة : كان ابن الرومي ينزِعُ إلى عَرْضِ ما هو غريبٌ غير مألوف ، كقوله في أكول :

وأمّا يدُ البصريِّ في كل صحفةٍ فأقْلَعُ من سَيْلٍ وأغْرَفُ من رَفْشِ[5]
أَ أُوعدُه بالشعر وهو مسلَّطٌ على الإنس والجِنّان والطير والوحْشِ

وكان ابنُ الرومي نفسُه نَهِماً أكولاً كما رأينا .

٤-والخصيصة الرابعة : كان ابن الرومي يُكْثر من التَّخييل والصُّوَر ، يقول في بائع الزَّلابية ، وهي نوع من المعجَّنات الحُلْوة المذاق ، تُقْلَى بالزيت ، وتُجْعل بشكل دوائر أو كُرَات :

---

(١) رنّق الطائر : رفرف بجناحيه من غير أنْ يطير . الأصيل : ما بين العصر والمغرب . الورس : نبات أصفر أو أحمر . مزعزعاً : محرّك بشدّة .

(٢) شوّل : نقص . تشعشع : تبدَّد .

(٣) النُّوّار : الزهر الأبيض . أضرع : ذليل .

(٤) مدنف : مريض . أوصاب : آلام .

(٥) رفش : ما يُجْرف به التُّراب .

ومستقرٌ على كُرسِيِّه تَعِبِ — **روحي الفداءُ له من مُنْصَبٍ نَصِبِ**[1]
رأيتُه سحَراً يَقْلي زلابيةً — **في رقَّة القشر ، والتجويفُ كالقصَبِ**
يُلقي العجينَ لُجيناً من أنامِلِه — **فيستحيلُ شبابيكاً من الذَّهَبِ**

٥-والخصيصة الخامسة مزاجه النّاري ، وكثرة انتقاده وهجائه ، وهما انتقاد وهجاء قد يبلغان به حدّ النَّيْل من الخِلْقة التي فَطَر الله الناس عليها ، على شاكلة هَجْوه لشخص اسمه عمرو :

وجْهُكَ يا عَمْرُو فيهِ طُولْ — **وفي وجوهِ الكلابِ طُولْ**
وقد يُحامي عن المواشي — **وما تحامي وما تصولْ**[2]
مستفعلن فاعلن فعولنْ — **مستفعلن فاعلن فعُولْ**[3]
بيتٌ كمعناك ليس له معنىً — **سوى أنّه فُضُولْ**

على أنّ انتقاده كان أحياناً يتوجّه إلى نفسه فيشبعها ملامة ، بسبب انشغالها بدنياها عن أُخْراها ، وهذا من أفضل ما اهتدى إليه في شعره ، يقول :

إنّ الليالي والأيّام قد كشَفتْ — **من كيدِها كلَّ مستور ومكْنُونِ**[4]
وخبّرتْنا بأنّا من فرائسِها — **نواطقاً بفصيحٍ غير ملْحُونِ**[5]

---

(١) المُنْصَبُ والنَّصِب : المُتْعَب .

(٢) الكلاب قد تحامي أي تدافع عن الغنم ، لكنّ المهجوَّ لايفعل ذلك .

(٣)يسمّى هذا الوزن " مخلّع البسيط " .

(٤)مكنون : مستور .

(٥)ملحون : خاطئ .

نشكو إلى الله جَهْلاً قد أضَرَّ بنا بل ليس جَهْلاً ولكنْ علْمُ مَفْتُون
أغوَى الهوَى كلَّ ذي عقل فلستَ ترى إلّا صحيحاً له أفعال مَجْنُون
هوى غَوِيٌّ وشيطانٌ له خُدَعٌ مضلِّلاتٌ وكيدٌ غير مأمون
أعجبْ به من عدوّ ذي منابذةٍ مُصغَى إليه طَوالَ الدهر مَرْكون[1]
وفي أبينا وفيه أيُّ مُعْتَبرٍ لو اعتبرْنا برأيٍ غير مَأْفون[2]
حتى متى نشتري دنيا بآخرةٍ سفاهةً ونبيعُ الفَوقَ بالدُّونِ
معلَّلينَ بآمالٍ تخادعُنا وزُخرفٍ من غرورالعيش مَوْضون[3]
ونجمع المالَ نرجو أن يخلّدَنا وقد أبى قبلَنا تخليد قارون [4]

والخصيصةُ السَّادسة أن هذا الشاعر المنكود مع شقاوته هو أقرب إلى السَّذاجة والبراءة ، ولن يصرفنا عن هذه الخصلة فيه ترديدُه لبعض العبارات الفلسفية ، ولا تأثّره بالمعتزلة ، ولا اطّلاعه على بعض الآثار اليونانيّة ، وكلّ ذلك فيه ، ولكنّه لا يمثّل مفتاح شخصيّته ، ولا جوانبها البارزة ، ولا سيما في شعره .

وتتمثّل براءةُ ابن الرومي في عِدّة مظاهر ، أوّلها حبّه لبيته ، الذي يسمّيه وطناً ، ومرّت بنا الأبيات المتحدثة عن ذلك .

والمظهر الثاني في حنينه إلى أيام حداثته ، وهذا واضح في قوله :

---

(١) ركن إليه : مال إليه .

(٢) مأفون : فاسد .

(٣) موضون : منسوج .

(٤) قصة قارون في سورة القصص (٧٦-٨٢) ، وكان من قوم موسى وكان واسع الثراء ، فلمّا عتا وطغى خسف الله تعالى به وبداره الأرض .

يذكّرني الشبابَ هوانُ عَتْبي وصَدُّ الغانيات لدى عتابي [1]
يـا أسـفا ويـا جزَعـا عليـه ويـا حزَنـا إلـى يوم الحسـابِ

والمظهر الثالث تلطُّفُه في عتاب صديق له جفا وده ، فصار ابن الرومي يستلينه ليعود إلى مودّته ، يقول في همزيته :

يا أخـي أيـن ريْـعُ ذاك الإخـاءِ أين ما كان بيننا مِنْ صفاءِ[2]
أينَ مِصْداقُ شاهد كـان يحكـي أنّـك المخلصُ الصحيحُ الإخـاءِ
تركتَني . –ولم أكنْ سيِّئَ الظنّ– أسـيءُ الظنـون بالأصدقـاء
وأنـا المَـرْءُ لا أسـوم عتـابي صاحباً غيرَ صَفْوةِ الأصفيـاء[3]

٧–والخصيصةُ السابعة : كان يغلب عليه الأسى ، وتكتنفه الكآبة ، وتغلب عليه الطِّيَرةُ ويحوطه عالم من الهواجس والوساوس والقلق والانفعالات المتضاربة المضطربة ، وكل ذلك يدلُّ على أنه كان مريضاً وهو مرض جعله يعتذر عن زيارة الكاتب أحمد بن ثوابة ، لأن بينهما نهر دجلة وهو يتشاءم من عبوره ، إذ أنّه لا يعرف السّباحة ، فلو انقلب به القارب لأضحى في قعر ذلك النهر . والشاعر شديد الخوف من الماء حتى لو رآه في كوز :

(١) العَتْب : العتاب . الغانيات : الشابّات الجميلات بِخلْقتهنّ لا بالمساحيق والدهون .
(٢) ريع الإخاء : ثمرته .
(٣) أسوم عتابي : أقصد به .

وأمّا بلاءُ البَحْر عندي فإنّه | طواني على رَوْع مع الرُّوح واقبِ[1]
ولمْ لا ولوأُلقِيتُ فيه وصخرة | لـو افيتُ منه القَعْرَ أوّل راسبِ
ولم أتعلّمْ قطّ من ذي سباحةٍ | سوى الغوص،والمضعوفُ غيرُ مغالبِ[2]
فأيسرُ إشفاقي من الماء أنّني | أمرُّ به في الكوز مرّ المُجَانِبِ

كان ابن الرومي شديد التأثّر بما حوله ، حادّ الإحساس ، وهيّأه ذلك أنْ يجيد في كل موضوع يثير العاطفة ، فعندما نكَبَ الزنج مدينة البصرة ، سنة ٢٥٧هـ ، وفتكوا بأهلها وأهلكوا الحرث والنّسْل ، نَسِيَ هذا الشَّاعرُ محنته الخاصّة ، وتبرّمه بمن حوله ، وصار يتعاطف مع المنكوبين ، ويقول :

ذادَ عن مقلتي لذيذ المنام | شُغْلُها عنه بالدموع السِّجام[3]
أيَّ نومٍ من بعدما حلّ بالبصرة | – ما حلّ من هَنَاتٍ عظامِ[4]
أيَّ نومٍ من بعدما انتهك | – الزّنْجُ جهاراً محارمَ الإسلام
لهفي عليك أيتها البصرة | – لهفاً كمثل لَهَب الضِّرام
كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً | تَرِبَ الخدِّ بين صرعى كِرامِ
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيّهِ | وهو يُعْلَى بصارم صمصام[5]

(١) واقب : مستكنّ . رَوْع : خوف .

(٢) المضعوف : الضعيف .

(٣) ذاد : دفع . السّجام : المتواصلة .

(٤)هنات : أشياء .

(٥)صمصام : سيف قاطع حادّ .

كم رضيعٍ هناكَ قد فطموه بشبا السيف قبل حين فِطامِ[1]
كم فتاةٍ بخاتَمِ اللهِ بِكْرِ فضحوها جهْراً بغير اكتتام
أينَ تلك القصور والدورُ فيها أينَ ذاك البنيانُ ذو الإحكام؟
انفِرُوا أيّها الكِرامُ خفافاً وثقالاً إلى العبيد الطَّغامِ[2]

مآسيه الخاصّة

إذا انتقلنا من هذه المأساة العامة إلى حياة ابن الرومي الخاصَّة وجدناها مغشَّاة بالنكبات ، محفوفة بالفجائع ، فقد توفّي أبوه وهو غضٌّ العود ، فكفَلتْه أمُّه وأخ أكبر له ، ثم ماتتْ أمّه ومات أخوه ، وكان له ثلاثةُ أطفال ، فمات أوسطهم ، ثم مات الآخران ، ثم ماتتْ زوجته . ولابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط ، واسمه محمد ، قصيدة من عيون الشعر العربي ، وهي تفيض بالعبرات ، يقول فيها :

بكاؤكما يَشْفي وإن كان لا يُجْدي فجودا فقد أوْدَى نظيرُ كما عندي[3]
ألا قاتل اللهُ المنايا ورميَها من القوم حبّاتِ القلوب على عَمْدِ
توخَّى حِمامُ الموتِ أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطةَ العِقْدِ[4]
على حين شِمْتُ الخير من لمحاتِه وآنسْتُ من أفعاله آيةَ الرُّشْدِ[5]

---

(١) شبا السيف : حدّه .

(٢) الطّغام : اللئام .

(٣)لا يجدي : لا ينفع . أودى : هلك ، مات .

(٤)توخّى : اختار .

(٥)شمت الخير : توقّعته ، رأيته . آنست : علمت ، وجدت .

طواه الرّدى عني فأضحى مزارُهُ بعيداً على قرب قريباً على بُعْدِ

لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَها وأخلفت الآمال ما كان من وَعْدِ

لقد قلّ بين المهد واللّحد لُبْثُهُ فلم يَنْسَ عهدَ المهد إذ ضُمّ في اللّحدْ

ألحَّ عليه النّزْف حتى أحاله إلى صُفْرةِ الجاديّ عن حمرةِ الوَرْدِ[1]

وظلّ على الأيدي تساقَطُ نفسُه ويذوي كما يذوي القضيب من الرّنْدِ

لعَمْري لقد حالتْ بيَ الحالُ بعدَه فيا ليتَ شعري كيف حالتْ به بعدي؟

ثَكِلْتُ سروري كلّه إذ ثكلتُه وأصبحتُ في لذّات عيشي أخا زُهْدِ

أريحانةَ العينين والأنف والحشا ألاليت شعري هل تغيّرْتَ عن عهدي؟

ألامُ لما أُبْدي عليك من الأسى وإنّي لأُخفي منك أضعافَ ما أُبْدي

محمّدُ ما شيءٌ تُوُهِّمَ سلوةً لقلبيَ إلّا زاد قلبي من الوَجْدِ

أرى أخويْكَ الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزّنْدِ[2]

إذا لَعِبا في ملعبٍ لك لذّعا فؤادي بمثل النّار من غير ما قَصْدِ

---

(١) الجادي : الزعفران .

(٢) أورى : أشدّ إشعالاً .

عليكَ سلامُ اللهِ منّي تحيّةً ومن كلّ غيثٍ صادقِ البَرْقِ والرّعدِ

وختام القصيدة يذكرنا بقول جرير في نهاية مرثيته لامرأته :

فسقَى صدى جدَثٍ ببرقةِ ضاحكٍ هَزَمٌ أجشُّ وديمةٌ مِدْرارُ[1]

---

(1) صدى : جثمان . جدث : قبر . برقة ضاحك : اسم موضع . هزم : غيث . أجشّ : فيه جلبة لكثافته وما يصحبه من رعد . ديمة : سحابة طويلة السَّكْب . مدرار : سخيّة ، ذات ماء كثير .